**2زيارة خاصة**

وقف الجنديان على باب المنزل ، مرتديين ثياباً تروح ألوانها بين البني والأحمر ، وعلى صدر كل منهما طرز فحل أسود طويل الشعر يشب في الريح -شعار عائلة ريدلر-. على حزام كل منهما علقت الخوذة المدببة على مقبض السيف. وبدآ ينظران إلى جيمز لاوريل بصبر يكاد ينفد.

«ألم يقل لكما حضرة اللورد لماذا؟» سألهما جيمز والفضول يملأه. لم يكن معتاداً أن يطلبه اللورد الشاب إلى القلعة. منذ أن جاء جيمز مع أمه وابني عميه إلى تورج ، وهو الذي كان يطلب مقابلة بايت ريدلر ، ومرة من كل ثلاث مرات كان يجيب جيمز بأنه مشغول حتى قبل موت اللورد تونموند ريدلر ؛ قبل أن يصبح بايت لورداً لا وقت لديه لرفقة ابن فارس ميت.

أجابه الجندي طويل القامة :«سيدي اللورد لا يحتاج أن يشرح لنا أوامره ، وتعلم الآلهة أنه لا يحتاج أن يشرح شيئاً لصبي مزرعة». يذكر جيمز جيداً أنه صبي مزرعة الآن ، مهما كان ما كانه قبل ذلك ، ***مهما كان ما كانه أبي ، أنا لم أكن شيئاً من قبل سوى ابن لفارس***.

-«أفهم هذا».

بدى على الجندي الأقصر إحساس بالذنب -أو الشفقة- لإجابة رفيقه فقال :«اللورد ريدلر طلب حضورك لخدمة ما يريدك أن تؤديها ، لا تخف ، لست واقعاً في مشكلة. قال حضرة اللورد أن باستطاعتك إحضار ابني عميك أيضاً ، في حال لم يؤخراك».

***هكذا إذاً*** ، فكر جيمز. زاده ذلك فضولاً ، لعل بايت ريدلر قد استمتع بصحبة جيمز -قبل أن يصبح اللورد ريدلر- ولكنه لم هتم أبداً بأحد ابني عميه. إيثان وكلاوس تربيا مع جيمز في قلعة ريدفيلد شمال أرض السارين ، وكلاهما ولدا في تورج كجيمز ، قبل أن يغدق الملك بيرثولد هانس على أبيه السير رايان لاوريل بقلعة ريدفيلد.

-«سأقول لهما حالاً ، وسأجهز في غضون دقائق».

قال الجندي طويل القامة :«لا تأخذ وقتك ، واترك ابني عميك إذا كانا سيؤخرانك ، لا زال علينا الركوب إلى القلعة».

قال جيمز بهدوء :«فهمت ذلك أول مرة ، أيها الجندي».

أغلق جيمز الباب ودخل إلى داخل المنزل. بالنسبة لبيت ريفي ، فإن مقر عائلة لاوريل الجديد كبير ومريح ، يتألف من بنائين من قرميد البناء والخشب ، القسم الذي ينزل فيه جيمز مع أمه الليدي إينيس هو الأكبر حجماً ، يتألف من طابقين ، السفلي عبارة عن غرفة معيشة كبيرة ، بالإضافة إلى مطبخ ، وغرف ثلاثة في الدور العلوي.

عبر جيمز الرواق الذي يقود للباب الخلفي ، وخرج إلى الأرض الترابية تحت ظل العريشة التي تتصل بالبنائين ، وأسرع نحو القسم الذي ينزل فيه إيثان وكلاوس. فتح الباب دون الحاجة أن يطرقه ، ووجد إيثان جالساً في غرفة المعيشة الأصغر حجماً ، يشرب الشاي ويقرأ كتاباً ، ويبدو أنه لم يسمع الجنديين اللذين طرقا الباب الأمامي للمنزل.

سأل جيمز :«أين كلاوس؟».

أجاب إيثان دون أن يرفع عينه عن كتابه :«إنه نائم ، ما الخطب؟».

قال جيمز :«نائم حتى الآن!».

-«لقد قضى الليلة في خان "الشماليين الثلاث" ، وأحضره دافن من القرية قبل الفجر ، محملاً على عربته. لقد كان ثملاً بحيث لا يدري من هو ، وضعته في فراشه ولم يتحرك حتى الآن ، أراهن بحذائي أنه ميت». لم يتفاجأ جيمز ، كلاوس لم يتكيف مع الحياة في القرية. لكنه كان يملك أملاً بأن اليوم قد يكون عطلة لكلاوس عن السكر.

-«لا وقت لإيقاظه ، فلترتدي ثيابك ، علينا الذهاب إلى تورج».

قال إيثان محاولاً إلقاء دعابة :«ألسنا في تورج الآن؟».

أجاب جيمز بتململ :«لقد أرسل بايـ-اللورد بايت لأخذنا إلى القلعة». ليس من الصعب تذكر أن بايت ريدلر هو لورد الآن ، لكن العادة جرت على لسان جيمز بأن يدعوه بايت ، كما طلب منه هو قبل أن يصبح لورداً. ***لا يجب أن أخطئ الآن.*** «هل يمكنك التجهز ، سنتحدث على الطريق. سأجهز الخيول». هز إيثان رأسه وجرع من كوب الشاي بسرعة.

عاد جيمز أدراجه إلى أرض المزرعة ، وعبر نحو الاسطبل الصغير ، حيث يحتفظ بالخيول الثلاثة : أثمن ممتلكاته. استقبلته رائحة الخيول والروث قبل أن يدخل ، وفي أحد الأكشاك المصنوعة من خشب السرو ، صهلت الفرس البيضاء والرمادية "فير" التي اعتاد جيمز ركوبها عند الذهاب إلى قرية "روانز ستون" ، و في آخرٍ صهل خيل الحرث "وينتركلاود" الرمادي. لكن "ستورمر" لم يكن موجوداً في أي مكان. ***اللعنة ، لابد أن كلاوس ركبه إلى القرية وتركه هناك. سيضطر إيثان إلى ركوب خيل الحرث ، سيتدبر أمره.***

وضع جيمز سرجاً على فير ، وبدأ يربط الأحزمة عندما دخل إيثان مبتسماً ، وكأنه يحاول أن يقرأ رد فعل جيمز على اختفاء ستورمر.

-«سأسلخ جلد كلاوس حياً ، لا بد لأحد أن يحشو رأس ذلك الأحمق ببعض المنطق. قبل أن يتسبب في قتل نفسه».

أجاب إيثان :«قد يقول كلاوس الكلام نفسه عنك. وعني بصراحة ، الرجل يرى المنطق في تجرع المزر ولعب النرد». بدأ إيثان بتجهيز وينتركلاود وأكمل «أعتقد أنني سأجعله يعود إلى روانز ستون على قدميه ليعيد ستورمر. فلتشرح لي الآن ، ماذا يريد اللورد ريدلر منا».

-«سنعرف فقط عندما نصل».

كان الجنديان راكبين بالفعل عندما خرج جيمز وإيثان إليهما جارّين الخيلين. رمق الاثنان إيثان بتساؤل. ثم هز الجندي قصير القامة رأسه ، معطياً ابني لاوريل إيعازاً للركوب.

الطريق إلى القلعة لا يمر بالقرية. فمزرعة آل لاوريل هي أقرب مزارع روانز ستون إلى تورج. بدلاً من ذلك اختار الجنديان طريقاً عبر الأراضي يشبه ما يسلكه جيمز عندما يزور القلعة وحده. مروا عبر حِرج كثيف من أشجار الصنوبر العالية غير المثمرة ، تملأ الأرض تحتها الإبر والأكواز الفارغة. ثم خرجوا من الحرج مارين بطاحونة السيد جابريل. ومنها يخرج طريق تحدده عجلات ألف عربة دخلت وخرجت من الطاحونة ، يتصل بالطريق المعبّد بالتراب المكدس الذي يمر بعد ميل واحد بالقرية التالية باتجاه القلعة.

تأخر جيمز وإيثان عن الجنديين مسافة تسمح لهما بالكلام دون أن يسمعاهما. بدأ إيثان الكلام قائلاً :«أشعر بأنه يتم سوقي إلى سجن القلعة كلصوص الخيول ، ألم تفهم منهما شيئاً».

فكر جيمز قليلاً ثم قال :«لو أنهم يسوقاننا إلى سجن القلعة ، لما تركا كلاوس. تعلم الآلهة أنه يبدو كاللصوص أكثر مما نفعل».

-«أما زلت غاضباً من أجل ستورمر ، سأحضر الخيل بنفسي عندما نعود».

«لست غاضباً من كلاوس ، إيثان» أجاب جيمز بسرعة ، «بل أشفق عليه ، أخبرني متى كانت آخر مرة نام في المنزل؟» ثم أتبع «دون أن يثمل».

نظر إيثان إلى البروز في مقدمة سرجه وارتدى تعبيراً مكشراً على وجهه ، وكأنه يريد التحدث في أي شيء عدا هذا ، لكنه أجاب :«كان هذا منذ فترة ليست بعيدة جداً. لا تقس عليه يا جيمز ، وحدها الآلهة تعلم ماذا يدور في رأسه ، عندما يكون صاحياً على الأقل».

-«كما تقول. على كل حال ، أظن أنني أعلم ماذا يريد بايت» دائماً ما وجد جيمز في نفسه القدرة على قراءة أفعال الآخرين ونواياهم ، وقد قال الماجستر إموند الذي علمه في قلعة أبيه بأنه يتمتع بالذكاء وحس الفراسة.

-«وماذا يكون هذا؟».

-«ببساطة شديدة ، أظن أنه يريدنا أن نقف خلفه».

كشر إيثان في وجه جيمز ، بدا وكأنه ظنها مزحة ، لكن بعد صمت جيمز تغيرت ملامحه إلى التساؤل بدلاً من ذلك. نظر الجندي طويل القامة -نسي جيمز أن يسأله عن اسمه- باتجاههما من فوق كتفه ، وأشار لهما بالاستعجال.

همز جيمز فير لتسرع قليلاً ، واستطرد قائلاً :«سترى بنفسك حين نصل».

لكن إيثان جارى السرعة بالسرعة ، ولحق به. بدا أنه يفكر قليلاً ثم قال :«نقف خلفه! ليعرض أنه ليس خالياً من الأتباع. يريد أن يبدو مهماً أمام أحد ، ونحن من أبناء النبلاء. أسهل نبلاء يمكنه أن يجدهم». دائماً ما يفهم إيثان ما يفكر يه جيمز دون أن يقوله. ولو كان هذا مزعجاً بعض الشيء أحياناً ، إلا أن جيمز يقدر وجود شخص يباريه بالذكاء.

-«أحسنت. والآن يبقى السؤال ، من هو الضيف الذي يريد اللورد ريدلر أن يتباهى أمامه».

«اللعنة» قال إيثان وسحب عنان خيله ليتسمر في مكانه ، فلم يجد جيمز شيئاً يفعله سوى أن يقف هو الآخر. ومن مسافة قصيرة أمامهم قال أحد الجنديين بصوت مرتفع :«ما الخطب؟».

سأل جيمز :«ما الأمر؟ هل نسيت شيئاً؟».

أجاب إيثان وبدا عليه أنه يحاول أن يكبح غضبه :«لم أنس شيئاً. لكنني أظن أن اللورد ريدلر هو من نسي». قوّس جيمز حاجبيه ، ليكمل إيثان :«أحياناً أرى بوضوح كم أن كلاوس محق في كل ما يفعله».

-«لا وقت لهذا ، إيثان».

أجابه الشاب ابن عمه :«لا. لا أظن» ، وهمز وينتركلاود ليواصل التقدم. وكأن شيئاً لم يحدث ، تابع الجنديان الركوب. «لكن ذلك لا يعني أنني سعيد جيمز. لعلك تكون سعيداً ، لكنني لست كذلك».

-«إيثان ، هل تتكلم بجدية؟ فلتسمع نفسك. دائماً ما تقف في صفي عندما يفتح كلاوس هذا الموضوع ، ماذا جرى الآن». يرى كلاوس أن عائلة ريدلر أهانت عائلة لاوريل عندما اضطروهم للعيش في مزرعة في قرية روانز ستون.

-«فلتفهم جيداً ، جيمز ، لعلي لا أوافق أن يتحدث كلاوس عن اللورد سايلور ريدلر وكأنه أهاننا عمداً ، لكن إذا لم يكن الرجل يدين لنا بشيء ، فنحن لا ندين لابنه بشيء كذلك. أليس من قلة الاحترام أن يرسل جنوداً ليسوقونا إلى القلعة كما تساق الخراف إلى الزريبة؟ لماذا لم يرسل لنا دعوة البارحة؟».

-«لأننا ببساطة لسنا أنداداً لبايت ، إيثان. تتحدث وكأننا أنداده ، ولكننا لسنا كذلك. إنه لورد ، اللورد ولي أمرنا ، ونحن عائلة لفارس متوف ، لسنا فرساناً ، بل عائلة لفارس ، والآلهة تعلم أننا لسنا لوردات. واللورد سايلور ريدلر لم يكن مديناً لنا بشيء. لقد تركنا قلعتنا بإرادتنا ، وجئنا إلى تورج بإرادتنا أيضاً». أدرك جيمز أن نبرته كانت قاسية بعض الشيء ، لكنه رفض أن يكون له ابني عمين أحمقين ، ***يعلم جيكال أن واحداً يكفي ويزيد***.

-«كان من اللياقة أن يضمنا إلى بلاطه ، كان يمكن أن يجعلنا ربائبه ، ويضم الليدي إينيس إلى بلاطه». ابتسم جيمز ، إيثان -وكلاوس أيضاً- لا يدعو أم جيمز بالليدي إينيس إلا عندما يكون له مآرب خفية -عادة ما يدعوها أمي تماماً كجيمز-.

قال جيمز محافظاً على الغضب الذي وجده :«إيثان ، يجب أن تفهم أن العالم أكبر بكثير من أن يهتم الجميع بكل التفاصيل ، خصوصاً في بقعة صغيرة من العالم كتورج ، اللورد ريدلر لا يحتاج المزيد من الناس في قلعته ، بل يحتاج إلى المزارعين ، وأصحاب الحرف ، تماماً كما احتجناهم في ريدفيلد». ***في الواقع ، احتجنا كلي النوعين في ريدفيلد***. «إذا كنت بحاجة إلى أحد تلومه على خروجنا من ريدفيلد ، يمكنك أن تلوم الملك بيرثولد هانس».

أطلق إيثان صفيراً من بين أسنانه وبدأ ينظر يميناً ويساراً ، وكأنه يبحث عن أحد سمع جيمز ، ثم قال :«كلام كهذا يرن في الأذن ، جيمز ، ويصدر صدىً من أفواه عديدة لا يتوقف حتى يصل إلى الأذن الخاطئة». ثم قال :«أنت محق. اللورد بايت لم يخطئ في حقنا ، لا بد أنه الشعور بالأسى على أنفسنا الذي يجعلني أتكلم. انظر إلينا ، نحن آل لاوريل!».

يعلم جيمز أن إيثان محق في شعوره بالأسى ، ***آل لاوريل***. لا يعني إيثان بالطبع الأيام التي كان فيها السير رايان لاوريل فارساً يملك قلعة. بل الأيام الخوالي ، في غزو الجنوب ، منذ نحو أربعمائة سنة. قد يكون آل هانس ملوكاً اليوم بينما جيمز وابني عميه صبية مزرعة ، لكن في غزو الجنوب ، كان آل لاوريل وآل هانس سواسية. أو بالأحرى ، كان "تيريل هانس" و "ماكسميل لاوريل" سواسية ، فاتحا الجنوب المقدامين.

ألف أغنية تتحدث عن الغزو ، ولا يجرؤ أحد إلى اليوم على نسيان اسم ماكسميل لاوريل من واحدة منها. إذا صدقت واحدة من كل عشرة أغانٍ ، فعند ركوب تيريل وماكسميل إلى الحدود الشمالية لما يعرف اليوم بمملكة هانس ، فقد أتيا من ويتفورد وحدهما ؛ لا يقودان جيشاً ، ولا يملكان إلا مطيتيهما وسيفيهما وما يرتديانه. «نحن آل لاوريل» قال جيمز مؤكداً. عندما تربع تيريل هانس على عرش المملكة ، كان ماكسميل وزيره الأعلى ، واستمر ذلك آخر أفراد آل لاوريل في "هانسبيرغ" منذ مئتي عام تقريباً. جيمز وابني عميه ينحدران من ذرية ابن أصغر في مرحلة ما أثناء ذلك ، ويظن جيمز أنهم -أغلب الظن- آخر من تبقوا من ذرية ماكسميل لاوريل.

قطعوا بقية المسافة إلى قرية "فيرينزجروز" خلال ساعة ، قضاها إيثان و جيمز في محاولة تخمين هوية الضيف الذي سيستقبله بايت. القرية تقع بين تلتين ؛ أكبر حجماً من روانز ستون ، ومأهولة بضعف عدد السكان. عندما وصلوا إلى الطريق الرئيس الذي يقسم القرية إلى نصفين ، أعطى الجنديان إيعازاً غير ملفوظ بالإسراع ، فغرز جيمز كعبه في ضلوع فير لتخب وراءهما.

تسلقت الخيول الأربعة التل الشرقي بسرعة مثيرةً غيوماً من الغبار. ومن هنا يمكنك رؤية قمم أبراج القلعة بوضوح ، ابتعدت تورج نحو فرسخ واحد أو أكثر بقليل. وقبل أن يشعر جيمز بمرور الوقت ، وبعد سلسلة من المنخفضات والمرتفعات ، وصلوا إلى البلدة المتاخمة للقلعة.

أبطأ الجنديان ، فأبطأ صبيّا المزرعة رداً. البلدة المحيطة بتورج تغطي مساحة ضيقة حول القلعة ، غير محاطة بالأسوار -كما يعلم جيمز كيف تكون البلدات الكبيرة- ، أبنيتها عبارة عن طابقين أو ثلاث -بناءان أو ثلاثة ترتفع إلى أربعة طوابق- مبنية بالحجارة والخشب ، وأفضلها مملطة بالجص. وشوارعها معبدة بالحجارة التي أكلها الزمان وحوافر الخيول والعربات. ورجالها قساة المعالم ، جميعهم يشبهون بعضهم ، وجميعهم يشبههم جيمز وابني عميه. في هذه البلدة ولد السير رايان لاوريل ، وفيها تزوج أم جيمز الليدي إينيس -قبل أن يصبحا فارساً وسيدته- ، وفيها رزقا بجيمز.

يبدو على البلدة أنها تتجهز للاستقبال أيضاً ، الرجال والنساء ينتظرون بترقب واحد ، يرتدون أفضل ما لديهم من ثياب ، ويتمتمون بأسئلة لبعضهم عن وصول الضيوف -سمع جيمز رجلاً يسأل آخر بتعجب :«هل هذان هما؟» ويشير إلى رفقة جيمز ، فأجابه الآخر :«أيها الأحمق. إنهما مزارعان ، أبناء لاوريل»- ، وأغلب جنود القلعة يخفرون شوارع البلدة ليتأكدوا من عدم حدوث مشاكل أمام الضيوف.

أشار جيمز لإيثان قائلاً :«يبدو أن تخميننا في محله ، إنه ضيف» ، فهز إيثان رأسه موافقاً بفخر.

بين برجي حراسة عاليين في سور القلعة ، كانت البوابة مفتوحة على مصراعيها الثقيلين المصنوعين من خشب الزان المطعم بالفولاذ. سأل حارس يقف بجانب البوابة بذهن غائب :«من هذان؟» ، ولو كان يوجد أحد في مرمى حديث الرجل ، لما استطاع أحد أن يعرف أنه يحدث الجنديين الراكبين مع جيمز.

أجاب الجندي الطويل :«أبناء لاوريل ، طلبهما حضرة اللورد». كان بإمكان الرجل ألا يجيب ، ولم يكن حارس البوابة ليكون أقل اكتراثاً. أطلق الجندي نخيراً وقال موجهاً حديثه لجيمز وإيثان :«سيأخذ أحدهم خيليكما... إذا كان في هذه القلعة رجل لا يلهيه التفكير بواجبه عن القيام بواجبه اللعين» ثم أصدر صفيراً حاداً بين سنيه وشفته السفلى ، لينبه صبي اسطبل يجري بسرعة في الساحة.

أخذ صبي الاسطبل عنان الخيلين ، وعيناه مشغولتان ، ظن جيمز أنه نظر إليه بطريقة مقارنة بين جيمز وابن عمه ونفسه ، لكنه سرعان ما أحكم قبضته على لجام المطيتين ونادى عامل اسطبل آخر.

أتى العامل ومعه قيم الاسطبل -السيد راكما الذي يعرفه جيمز- الذي رحب بجيمز قائلاً :«السير لاوريل ، ومن هذا ، لا بد أنه ابن عمك ، سير لاوريل آخر».

«كفاك سخرية ، سيد راكما ، أنت تعلم أنك أقرب مني إلى الفروسية» ، أجابه جيمز مبتسماً ، وأتبع ضاحكاً :«لقد طلبني سيدك ، هل أنت واثق أنه لا يريدني أن أساعدك في تنظيف الاسطبل ، أجبني ، ألست أنت وراء هذا؟».

قال راكما وهو يأخذ خيول الجنديين :«ليته كان كذلك ، الآلهة تعلم أن الإسطبلات في حالتها هذه بحاجة إلى فرسان شجعان لتنظيفها ، يستحسن أن يكونوا قتلة تنانين ، فقد وجد "تيسر" جرذاً بحجم تنين» وأشار إلى الصبي الذي أخذ عنان وينتركلاود ، «الأحمق ترك الشيء اللعين يهرب في جهة ، وهرب هو في الجهة الأخرى».

ضحك جيمز مجاملاً قيم الاسطبل السمين الذي سحب الأحصنة في طريقه إلى الاسطبل الخلفي وهو يضحك على نكتته. ثم تبع مع إيثان الجنديين إلى بوابة القلعة الداخلية بعد الساحة المزهرة. تتألف قلعة تورج من ثلاثة أبراج ، أقدمها برج رباعي الأضلاع ، وهو أقصر الثلاثة وأوسعها مساحة ، والآخرَان برجان أسطوانيان مقببان بقبتين متماثلتين من القرميد الرمادي. بالإضافة إلى المباني القصيرة التي تخدم القلعة وتصل أبراجها ببعض. القلعة هدمت وأعيد بناؤها ثلاث مرات في التاريخ الحديث : حسبما قرأه جيمز ، المرة الأولى عندما خلع الملك تيريل هانس أرض السارين -التي تضم تورج- من سلطة الملك دانيال بورجيا ، وضمها إلى مملكة هانس اليافعة حينها ولا يرد ذكرٌ يؤكد أي الطرفين هدم القلعة ، ومرة أخرى عندما قرر دانيال بورجيا آخر أن يحرق أرض السارين عن بكرة أبيها فيما عرف بـ"إعادة الفتح الأول" ، وآخر مرة عندما حاصرها الملك بينيت هانس الأول في حقبة استقلال أرض السارين ، حيث رفض لورد تورج حينها الاستسلام حتى بعد هزيمة اللورد "داريس أورندال" الذي دعا نفسه بملك السارين.

وصل جيمز إلى البهو ، ليجد اللورد بايت ريدلر يعطي الأوامر لخدم القلعة ذوي اللباس الأخضر الغامق والأسود ، الذي يحمل فحل آل ريدلر على الصدر. «لن تكفي الشموع ، فلتعلقوا مصابيح الزيت على الثريات ، لماذا علي أنا أن أخبركم بهذا ، أين وايد؟ آه جيمز لقد أتيت أخيراً».

-«سيدي اللورد...».

قطع بايت كلام جيمز قائلاً :«لا وقت ، وايد ، أين هو هذا الملعون. إيثان ، ألست إيثان ، أم أنك "كلايس"».

أجاب إيثان :«إيثان ، سيدي اللورد ، وابن عمي...».

قال بايت مقاطعاً مجدداً :«مرحبا بك على أي حال ، وايد ، ها أنت ، فلتصحب جيمز وإيثان ، احرص على أن يحظيا بحمام منعش ، لكن ليس حماماً طويلاً ، واجلب لهما ثياباً يرتديانها ، ثم عد وأصلح موضوع المصابيح اللعينة».

حاول جيمز أن يتحدث «لورد ريدلر ، لو أنك شرحت لي...».

-«لا وقت ، وايد سيشرح لك ، لكن لا تستطرد ، عليك أن تعود لتشرح لي لماذا هنالك بساط أحمر في البهو ، أحمر من بين كل الألوان اللعينة».

طأطأ وايد رأسه باحترام ، ثم أشار لجيمز وإيثان بيده ليتبعاه. عبر بهما دهليزاً طويلاً لا يفتقر إلى خدم يجرون بهلع من مكان إلى آخر ، حتى كاد أحدهم يسقط وايد دون أن يلحظ وجوده حتى ، ألقى أمين القلعة شتيمة قبل أن ينعطف يساراً ، ثم يساراً مرة أخرى حيث تبدأ مجموعة من السلالم العريضة التي تقود إلى جناح حجرات اللورد.

شرح وايد وهو يعبر بهم دهليزاً عرضه ستة أقدام مضاء بالمشاعل :«اللورد ميدلروز قادم للزيارة ، وصلتنا الحمامة حاملة النبأ منذ أيام ، ومن حينها وحضرة اللورد قلق ويتصرف بتوتر».

سأل إيثان :«اللورد بالين ميدلروز؟ لورد أرض السارين؟».

صحح وايد اللقب :«لورد "حصن الجبل" واسيد القائم على أرض السارين» ثم أشار لهما بالمرور عبر باب وهو يكمل «يأتي حضرة اللورد ميدلروز ليمنح التعازي بوفاة اللورد سايلور ، ومتوقع أن يأتي معه رهط من الضيوف ، وأراد اللورد بايت أن تكون ضمن المستقبلين ، تعلمان ، كرامة لحضرة الفارس السير رايان». هز إيثان رأسه موافقاً ، ورمق جيمز بنظرة كلها معنى.

كانت أربعة أحواض استحمام منتشرة في أحد حجرات الحمام ، أتى خادمان بدلاء الماء الدافئ وقاما بملء اثنين منها وإضافة الزيوت المعطرة. وعندما انتهيا ، نظر إيثان إلى جيمز ورفع كتفيه قائلاً :«لعلي أستمتع بهذا رغم كل شيء» ، ثم خلع ثيابه على عجل وكومها بجانب الحوض ، وأطلق صوتاً حاداً من حنجرته وهو ينزل في الماء الدافئ. «اللعنة ، إنه أفضل من أي حمام أخذته في بيت المزرعة».

قال جيمز وهو يخلع سراويله :«لا تعتد على هذا ، من السهل أن تحب أن يخدمك الآخرون ، ثم عندما يجب عليك أن تعتمد على نفسك مجدداً...» ، أصدر جيمز الصوت ذاته وهو ينزل في الحوض الآخر ، ثم أغمض عينيه وترك جملته دون أن يكملها.

دخل خادم آخر بعد قليل ليضع ثياباً مطوية على منضدة ، ويجمع ثياب جيمز وإيثان وخرج بها دون أن يقول شيئاً ، نهض إيثان من فوره ليتفحص الثياب التي وفرها لهما اللورد بايت ، فتح جيمز عينه اليمنى ليسترق النظر إلى الملابس أيضاً ، عدا عن الملابس الصغيرة ، كان هنالك سراويل من الكتان سوداء اللون ومطعمة بخطوط بيضاء في نهايتها ، وزوجاً آخر لونه أخضر غامق مطرز حتى وسط الفخذين بخطوط متعرجة من اللون الخمري ، وقميصين متماثلين من الحرير أحدهما أسود والآخر أبيض ، ورداء من الكتان يقابل كلاً من السراويل ، أحدهما خمري مع خط عريض من الأخضر يتوسطه من الصدر إلى نهاية الرداء ، وخط مشابه على جانب كل من الكمين ، والآخر أسود أسفله مطرز بالأبيض بخطوط متعرجة تصل إلى وسط البطن ، ومعطفين من الساتان الناعم أحدهما فضي ، والآخر أحمر.

قال جيمز بصوت هادئ :«سآخذ الثياب الخضراء».

أجاب إيثان :«هنيئاً لك بها ، تبدو كثياب الغجر ، لو كان الغجر لوردات أو أثرياء». وبدأ يرتدي ثيابه الجديدة.

-«فلتخبر اللورد ريدلر بهذا عندما تراه ، لا أشك بأنه سيرتدي لوني عائلته الأخضر والأسود ، لعلك تسأله أيضاً إذا كان جده غجرياً».

قال إيثان بينما يقفز على رجل واحدة بينما يحشو الأخرى في السراويل السوداء :«ظريف حقاً. هل فرغت من حمامك بعد؟».

«أجل» أجاب جيمز وخرج ليرتدي ثيابه المستعارة ، وعندها فقط انتبه إلى شعار عائلة لاوريل المطرز على صدر الرداء ، الأفعى ذات الرؤوس الخمس. ***لا بد أن بايت أمر بصنعها منذ أيام ، هذا شيء لم أره منذ فترة***.

دخل وايد